

الشیطان والسحر

فی تعلیم القديس یوحنا الذهبی الفم

هذه النصوص مختارات من كتابات معلم الكنيسة القديس یوحنا الذهبی الفم، جمعها الراهب بنديكتوس الأثوسی، من مشورات إسقيط القديسة حنة

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

زمان سقوط الشيطان وسببه

یعلمنا الكتاب المقدس أنه قبل خلق الإنسان، رُمي الشيطان وكل الذين تبوّوا نظرتهم من خدمتهم السماوية بسبب غرورهم وغطرستهم. بالنتيجة، كانت سقطه إبليس ابتداء الموت في العالم على ما یقول الحكيم: "مكر الشيطان كان ابتداء الموت في العالم" (حكمة 2:24). إذا أخبروني، لو لم یكن الشيطان قد سقط قبل خلق الإنسان، كيف له أن یكن كل هذا البغض للإنسان؟ لو لم یكن الشيطان قد سقط قبل خلق الإنسان لكان ما یزال في كرسيه السماوي. هذا لأن كراهية الملاك للإنسان غير مبررة. إن الإنسان، المخلوق الذي یحمل جسداً، ینظر بتقدير كبير إلى الملاك. ومع هذا، فقد سقط الشيطان من أعلى المجد الذي كان فيه إلى أسوأ ما قد یكون. كل هذا جرى حين كان روحاً لا جسداً له. لقد راقب الإنسان المخلوق، لابساً جسداً وتمتعاً بمرتبة عالية بسبب محبة خالقه له. لهذا السبب، إبليس الملاك الساقط، أحسّ بحسد عظیم. وهكذا، بالخدیعة عن طریق الحیة، جعل إبليس الإنسان مذنباً ومعاقباً بالموت. هذا هو الشر! إنه لا یتحمّل سعادة الآخرين بهدوء. وهكذا إذا، الكلّ یعرف أنه في الزمان القديم، سقط الشيطان وجنوده من النعمة السماوية، وفوق هذا فقدوا فضيلتهم.

أسباب سقوطه: اللامبالاة، الغرور والیأس المتهوّر

كان الشيطان طاهراً قبل سقوطه. لكن بما أنه دخل في اللامبالاة غلبه الیأس فسقط في حقد عظیم صار عاجزاً عن سحب نفسه منه. تظهر حقيقة أنه كان طاهراً في الكتاب المقدس: "رأيتُ الشَّيْطَانَ سَاقِطًا مِثْلَ الْبَرْقِ مِنَ السَّمَاءِ." (لوقا 10:18). تظهر مقارنة سقوطه بالبرق حالته السابقة وسرعة سقوطه.

إن الذي یتأثر بإبليس یمارس الغرور بالطريقة نفسها، لأن إبليس سقط بسبب الغرور. لهذا علينا أن نحرص على الامتناع عن هذا الهوى، حتى لا نسقط في الخطیئة التي ارتكبتها، وإلا فسوف نكون مسؤولين عن انضمامنا إلى اللعنة نفسها واشتراكتنا بعقابه. صار الشيطان على هذا الحال لأنه سقط أولاً في الیأس ومن الیأس تابع إلى السقوط في الغطرسة. فقط لهذا السبب وليس لأي سبب آخر.

حسد الشيطان

إنی أذهل من عظمة حسد الشيطان ومكره. فكونه المضلل والشيطان، لا یتستع تحمّل رؤية السيرة الملائكية في جسد بشري.

لقد تمنى أن یعاملنا بالطريقة ذاتها التي بها طُرد من النعمة المعطاة له، عند بداية غروره. وبعضیانه الوصية أراد أن یقودك إلى عقاب الموت لكي یرضي مكره. هذا تماماً كما قال أحدهم "مكر الشيطان كان ابتداء الموت في العالم" (حكمة 2:24).

الشيطان الذي یتحرّك بدافع الكراهية والحسد، ولا یتستع أن یتحمّل رؤية البركات التي مُنحت للإنسان مباشرة منذ البداية، سعی إلى المكر ومنه إلى الخدیعة التي تسبب الموت.

الشیطان واتباعه قوى من مرتبة أدنى من الملکوت

هؤلاء السلطات، والرؤساء والعروش سماویون. أما سلطات ورناسات الشیطان فهي دون السماوات. هذا هو سبب تسميتها بالسائدة على العالم. إنه لإظهار أن السماوات ليست مفتوحة لهم وأن مجال ممارسة سلطتهم الاستبدادية هو هذا العالم.

وجود كتائب من الشیاطین

"فإنّ مُصارعنّا لیسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلَاطِینِ، مَعَ وِلَاةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِیَّةِ فِي السَّمَاوِیَّاتِ." (أفسس 6:12). تماماً كما هو مكتوب، یوجد عروش وسلطات وولایة ورؤساء، وهكذا أيضاً عند أرواح الخدیعة.

تسمية الشیطان

هو لیس فقط الذئب، بل أيضاً الأسد، لأنه قد قيل: "أصْحُوا وَاسْهَرُوا. لِأَنَّ إِبْلِيسَ خَصَمَكُمُ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، یَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ یَبْتَلِعُهُ هُوَ." (1بطرس 5:8). إنه هو الحیة والعقرب، كما هو مكتوب: "هَآ أَنَا أُعْطِیْكُمْ سُلْطَانًا لِنُدُوسُوا الْحَيَاتِ وَالْعُقَارِبَ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ، وَلَا یَضْرُكُمُ شَيْءٌ." (لوقا 19:10).

أ) رئیس العالم وهذا الدهر

"لَا أَتَكَلَّمُ أَيْضًا مَعَكُمْ كَثِیرًا، لِأَنَّ رَئِيسَ هَذَا الْعَالَمِ یَأْتِي وَلَیْسَ لَهُ فِی شَيْءٍ." (یوحنا 14:30). المسيح یسمی الشیطان رئیس هذا العالم ویسمی الناس الماكرین بالشیء نفسه، لأنه لیس رئیس السماوات والأرض، وإلا لكان طرح كل شیء ودمره. لهذا هو یسمی "والي هذا الدهر" (أفسس 12:6).

لماذا یسمی رئیس هذا العالم؟ لأن كل الجنس البشري تقريبا قد أخضع ذاته له، وهم خدامه طوعیا. وما هو أكثر من ذلك، لقد فعلوا ذلك بإرادتهم. لا ینتبه أحد للمسیح الذي وعد بأن یمنحنا خیرات لا تُحصى. بالمقابل، الكل مطیع لذلك الذي لا یعد بشیء لا بل أيضاً یرسلنا إلى الجحیم. ولكن، إذا كان والي هذا الدهر وله سلطة على الأرواح أكثر مما لربنا، ومطيعوه أكثر عدداً من مطيعي الرب یسوع المسيح (ما عدا قلة صغيرة)، فسبب هذا هو تراخينا.

مكان الشیطان

إن للشیطان سلطة روح الهواء، بحسب ما یقول المسيح، لأن المكان الذي یحتله الشیطان هو تحت السماء ولأن القوى غیر المتجسدة هي أرواح في الهواء. استمعوا للرسول بولس یؤكد في نهاية رسالته إلى أفسس أن سلطة الشیطان لیست أبدية بل هي تنتهي مع انتهاء الدهر الحالي. فهو یقول: "فإنّ مُصارعنّا لیسَتْ مَعَ دَمٍ وَلَحْمٍ، بَلْ مَعَ الرُّؤَسَاءِ، مَعَ السَّلَاطِینِ، مَعَ وِلَاةِ الْعَالَمِ عَلَى ظُلْمَةِ هَذَا الدَّهْرِ، مَعَ أَجْنَادِ الشَّرِّ الرُّوحِیَّةِ فِي السَّمَاوِیَّاتِ." (أفسس 6:12). هذا حتی لا تصدقوا أنه مادي عندما تسمعون أنه والي هذا الدهر الذي یسمی في مكان آخر من الكتاب المقدس: "دهر الخدیعة والضلال". طبیعی أن الكتاب المقدس لا یعني الأشياء المخلوقة. وهكذا، أنا أو من بشكل ثابت، أنه إذا صار سید ما تحت السماء، حتی بعد عصيانه، فلن یتخلی عن سلطته.

ب) معاند وشریر

الكتاب المقدس یسمی بالمعارض والخبیث لأنه یشي على الله عند الإنسان، وعلینا عند الله، وحتى بین بعضنا البعض. في مكان آخر، في سفر آیوب، یقول الشیطان لله: "هَلْ مَجَانًا یَبْقَى آیُوبُ اللهُ؟" (آیوب 1:9)، ومرة أخرى إنه یشي بالله عند آیوب قائلاً: "نَارُ اللهِ سَقَطَتْ مِنِّي

السَّمَاء" (أيوب 1:16). وعند قد وشى بالله آدم أيضاً بقوله، كما هو مكتوب: "فَقَالَتِ الْحَيَّةُ لِلْمَرَأَةِ: «لَنْ تَمُوتَا! بَلِ اللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَاللهِ عَارِفَيْنِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ»" (تكوين 3:4-5). وأكثر من ذلك، هو يقول لكثيرين اليوم: "لا يلتفت الله إلى الكثير من الأمور التي ترونها، لكنه ترك للشياطين الاهتمام بكل ما يخصكم". لقد افترى الشيطان حتى على المسيح عند العبرانيين مسمياً إياه بالمخادع والغشاش والساحر.

ومع هذا فقد يرغب البعض بمعرفة كيف يعمل. عندما يجد فكراً خالياً من محبة الله، وعندما لا يجد نفساً حكيمة، أو نفساً لا تتأمل بوصايا الله ولا تحفظ ناموسه، عندها يسعى لاقتعال هذا الإنسان. لاحقاً، يتركه. لو أن آدم عندما كان في هذه الحالة تأمل بوصية الله القائلة: "وَأَمَّا شَجَرَةُ مَعْرِفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ فَلَا تَأْكُلْ مِنْهَا، لِأَنَّكَ يَوْمَ تَأْكُلُ مِنْهَا مَوْتًا تَمُوتُ" (تكوين 2:17)، لما كان تحمّل كل ما عانى من الألم.

(ج) "الأسد"

يُدعى الشيطان أسداً في الكتاب المقدس. اسمعوا ما يقول: "أَصْحُوا وَاسْهَرُوا. لِأَنَّ إِبْلِيسَ خَصَمَكُمْ كَأَسَدٍ زَائِرٍ، يَجُولُ مُلْتَمِسًا مَنْ يَبْتَلِعُهُ هُوَ." (1 بطرس 5:8). والقول نفسه في مكان آخر: "عَلَى الْأَسَدِ وَالصَّلِّ تَطُّبُ الشَّبَلِ وَالثُّعْبَانَ تَدُوسُ." (مزمو 91:13). يأخذ الوحش أشكالاً كثيرة، لكن إذا كنا ساهرين، يصبح هذا الأسد وهذه الحية أتعف من الطين. لن يأخذ الشيطان موقعه ضدنا مباشرة. وحتى ولو ظهر فبإمكاننا أن نسحقه، لأنه مكتوب: "هَا أَنَا أُعْطِيكُمْ سُلْطَانًا لِنُدُوسُوا الْحَيَاتِ وَالْعَقَابِ وَكُلَّ قُوَّةِ الْعَدُوِّ، وَلَا يَضُرُّكُمْ شَيْءٌ." (لوقا 10:19).

هو عادم القوة أمام المسيحيين

يطوف الشيطان باحثاً عن فريسة في كل مكان، بغضب كبير تماماً كما يفعل الأسد. وفي كل الأحوال، إذا استطاع أن يوجّه الإهانة إلى الذين يحملون المسيح وصلبيه على جباههم، وإلى نار الروح القدس وشعلتها التي لا تُطفأ، إلا إنه عاجز حتى عن النظر إليهم. لهذا هو سوف يدير ذنبه ويرحل غير متجري على العودة مجدداً.

لكي تعلموا أن كل ما قيل ليس مجرد كلمات، أناشدكم أن تقرأوا كتابات الرسول بولس. هذا لأنه كان إنساناً أيضاً. في أي حال، بما أن هذا الأسد كان خائفاً جداً من بولس، فقد تجنّب حتى ثيابه وظلّه. هذا كان طبيعياً جداً وسببه أن الشيطان لم يستطع أن يتحمّل عبير المسيح الذي انبثت صادراً عن شخص بولس، ولا هو استطاع حتى أن يرفع عينيه نحو تلك الشعلة الفاضلة.

(ج) المجرّب الأبدي

يقول الإنجيل ببساطة أن الإنسان شرير، ولكنّه يسمّى الشيطان مجرباً عند كلامه عنه. لماذا؟ هذا لأن الشيطان صار أبا الشر. ولهذا السبب هو يُدعى المجرّب الأبدي أو المُغوي، وهذا يكفي. وبدل الاسم الأول فإن اللقب يُستعمل بسبب طاقته المفرطة على الإغواء التي لم تُخلق فيه بل اكتسبها لاحقاً.

"لكن نجنا من الشرير" (متى 6:13). الإنجيل يُسمّى الشيطان "الشرير" ويحقّرنا على الدخول معه في معركة لا تنتهي. إنه يشرح أيضاً أن هذا الشر ليس أصلاً من طبيعته، لأن الشر ليس من مكونات طبيعتنا، بل هو نتيجة الإرادة.

إنّه يُدعى هكذا بشكل خاص، أي بالشرير، بسبب شره المفرط. وحتى لو لم نرتكب أيّ ظلم نحوه بأي شكل من الأشكال، فهو قد أعلن علينا حرباً لا تلين. لهذا السبب لم يقل ربنا يسوع المسيح "نجنا من أمور الأشرار" بل قال "نجنا من الشرير". إنه يعلمنا أن نحسّ مع إخوتنا البشر بغض النظر عمّا يفعلون لنا، ولكن أن نوجّه غضبنا إلى الشيطان لأنه مصدر كل الشرور.

عندما يقول "لأن لك الملك..." (متى 6:14)، يظهر أن الشيطان مذعن، فيما هو عدونا ومن الجلي أنه يحاربنا، لكنّ هذا بائذ من الله. فهو أحد خدام الله، مع أنه أحد الذين تمردوا ووقفوا في

وجه الرب. لم يكن المتمرد ليهاجم أيًا من خدام الرب لو لم يكن قد أخذ إذنًا من العلى. ماذا أقول لخدامه المخلصين؟ أقول أنّ الشيطان يعجز عن مهاجمة حتى الخنزير، لو لم يكن مسموحاً له بذلك. لو لم يُعط إذنًا من السماوات لما كان قادراً على مهاجمة الخراف ولا حتى الماشية.

ه) وحش شرير كثير الأسماء والأشكال

الشيطان بكل قوته هو مثل الخنزير الوحشي والوحش البري لأن مظهره وحشي وقذر. عندما أراد الإنجيل أن يعلن اغتصابه قال عنه أنه "كأسد زائر، يجول مُلتمساً مَنْ يَبْلَعُهُ هُوَ." (1بطرس 5:8). في أي حال، عندما يريد الإنجيل أن يفصح حقه المؤذي القاتل المأسوي، يدعو الحية والعقرب، فيقول "ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكلّ قوة العدو، ولا يضرّكم شيءٌ." (لوقا 10:19). ومجدداً، عندما يريد أن يظهر قوته ومعها اختصاصه في التسميم، يسميه الحية (أو التنين). تماماً عندما يقول: "هذا التنين الذي خلقته ليلعب فيه" (مزمور 103:26). في كل مكان، يسمّى الثعبان الشرير والأفعى التي تتصرّف كعميق. إذاً، الوحش مرگب ومتعدد الأشكال. وفوق هذا، إنه ذو قوة هائلة. إنه يثير كلّ شيء، يعكّر الجميع ويقلب كلّ شيء رأساً على عقب.

لكن لا تخافوا ولا ترتعدوا. فقط ابقوا متيقظين وحذرين، فهو سوف يظهر كمثل عصفور لا يؤذي. قد قيل: "ها أنا أعطيكم سلطاناً لتدوسوا الحيات والعقارب وكلّ قوة العدو، ولا يضرّكم شيءٌ." (لوقا 10:19). إذا أردنا ذلك، لقد أعطينا السلطة لكي نسحقه بأرجلنا. لاحظوا إذاً، مدى غرابة كل هذا البؤس. ذلك الذي ينبغي أن يكون تحت أرجلنا هو الموجود فوق رؤوسنا. كيف يحدث هذا؟ الأمر يتوقف علينا بشكل كامل. إذا رغبتنا به يكون كبيراً، وإذا أردناه يكون صغيراً. إذا انتبهنا لأنفسنا وبقينا مع ملكنا، يكون تحت السيطرة وفي المعركة التي يخوضها ضدنا لا يكون أكثر من ولد صغير. ومتى ابتعدنا عن ملكنا يصبح متغطرساً يصرّ بأسنانه ويزار لأنّه وجد أننا لسنا إلى جانب حليف عظيم. هذا لأنه لا يهاجم إلا إذا أذن له الله بذلك.

متى يأذن الله له بمهاجمتنا

يسمح الله ببعض الهجمات علينا، عندما يريدنا أن نصلح أنفسنا أو عندما يطلب منا التكفير أو ليزيد من امتحاننا، كما فعل مع أيوب. أترون أنّه (الشيطان) لم يدن من أيوب ولا تجرأ على الاقتراب منه وحتى أنه خاف وارتعد من التفكير به؟ لماذا أتحدث عن أيوب؟ هذا لأنه عندما هاجم الشيطان يهودا، لم يجرؤ على القبض عليه بالكامل والدخول فيه، إلى أن قطعه الله من جماعة الرسل المقدسة. إذاً، في البداية هاجمه الشيطان خارجياً لأنه عجز عن الدخول فيه. بينما عندما رأى أنه قُطع من بين الرسل القديسين انقضّ بعنف أكثر من الذئب ولم يتراجع إلى أن أمات يهوذا موتاً مزدوجاً، جسدياً وروحياً.^[16] الوحش شرير ويعمل كل شيء ضد خلاصنا.

برهان شرّه

ماذا أقدر أن أفعل؟ فربكم محب للبشر! هو يفضل أن تجذّفوا عليه بكلمات آثمة على أن يسلمكم إلى أيدي الشياطين حتى تتعلموا من الخبرة المباشرة كيف يسوسون الأمور. متى امتلكتم الخبرة تصبحون أكثر إماماً بعنفهم.

لكن يمكنني أن أعطيكم الآن مثلاً صغيراً فقط.

لاقي المسيح بعض الأشخاص المسكونين خارجين من بين القبور، وسألوه أن يسمح لهم بالدخول في قطيع الخنازير. أذن لهم، فدخلوا في القطيع ورموه مباشرة عن جرف الجبل. هكذا تتسلط الشياطين، مع أنهم كانوا بلا حجة لفضل ذلك بقطيع الخنازير. في أي حال، يختلف الأمر معكم لأن بينهم وبينكم معركة لا مصلحة فيها وعداء لا يموت وحرب عديمة

الشفقة. بما أنهم لم يتمكنوا، ولو للحظة واحدة، من احتمال القطيع، فهل تتخيلون ما قد يفعلوا بنا إذا أعطوا السلطة بذلك، ونحن أعداؤهم الذين نؤلمهم باستمرار؟ لهذا السبب، سمح الله لهم بالانقراض على قطيع الخنازير لكي تعرفوا شرهم الفطيع على الحيوانات غير العاقلة. إنه جلي للجميع، أنهم كانوا ليفعلوا الشيء نفسه للمسكونين بالشياطين، أي أولئك الممسوسين السالكين في جنونهم، لو لم يكونوا تحت العناية الإلهية في ذلك الحين.

الآن، إذا التقيتم بإنسان يشوشه ويحركه شيطان ما، فصلوا إلى الرب وافهموا حقد الشياطين. ما سوف تلاحظونه في الممسوسين هو شر الشياطين ومحبة الله للإنسان. يمكنكم أيضاً أن تروا الشر عندما يزعج الشياطين نفوس الممسوسين ويشوشونها. كما تستطيعون تبيان الإله المحب البشر عندما يُضبط ويَعَوَّق هذا الشيطان المتوحش القوي الذي يعيش في داخل الإنسان ويشتهي سقوطه. ليس مسموحاً للشيطان أن يستعمل كل قوته لكنه مسموح له فقط أن يظهر منها ما يكفي ليصلح الإنسان نفسه ويظهر كراهية الشيطان.

أترغبون أيضاً بمثال آخر عن كيف يتصرف الشيطان بحقه عندما يؤذّن له؟ فكروا بقطعان أيوب من الخراف والماعز، وكيف أبيدت بلحظة واحدة، بموت أبنائه البائس المفاجئ وبقروحه! عندها سوف ترون وحشية الشياطين الصرفة وبربريتهم وقساوة شرهم. من هذا تتعلمون جيداً أنه إذا سمح الله بأن تكون الأشياء تحت سيطرتهم سوف يقلبونها رأساً على عقب. فسوف يسببون الفتنة فيما بيننا ويفعلون تماماً ما فعلوا بالخنازير وبقطعان أيوب. أبدأ لن يأخذوا خلاصنا بعين التقدير.

إذا تسلّم الشياطين زمام أمورنا، لن نكون أفضل حالاً من الممسوسين، بل قد نكون في حال أسوأ من حالهم أيضاً. هذا يعود إلى حقيقة أنهم لم يكونوا متروكين من الله لحكم الشياطين المطلق وإلا لكانوا عانوا كثيراً أكثر مما عانوه في ذلك الحين.

التعرّف إلى الشياطين

يتعرّف الإنسان إلى الشيطان من كمية الجلبة التي يحدثها، مسبباً الحماقة والجنون والظلام الهائل في الإنسان. في أي حال، إن من يحمل الله في داخله هو شخص ينيّر ويعلم بحكمة ما أمر به الله.

سبب وجوده

لهذا السبب سمح الله له بوجوده: لكي يجعلكم أكثر قوة وليقدّمكم كرياضيين لامعين في المعركة الروحية، فتكون بطولاتكم أكثر قيمة.

إذا سألكم أحد: لماذا سمح الله بوجود الشيطان؟ هذا ما عليكم الإجابة به: الله لم يمنع فقط عدم أذية الأشخاص الوقورين والمنتبهين، بل أيضاً جعل الأمر مفيداً لهم. وهذا ليس بحسب رغبة الشيطان الشرير والمخادع، بل بحسب شجاعة الذين يستفيدون من فظاعته. الشيطان هاجم أيوب ليس ليظهره أكثر مجداً بل ليغلبه. لهذا السبب هو مخادع، لأن رغباته ونواياه هي مخادعة. ومع هذا، فهو لم يؤذِ الرجل البار أبداً، بل على العكس استفاد الرجل من المعركة على ما أظهرنا سابقاً. وهكذا، أظهر الشيطان اغتصابه وأظهر رجل الفضيلة شجاعته. ولكنكم ذكرتم أنه غلب كثيرين. بالطبع هو منتصر، لكن سبب هذا هو ضعف الأشخاص وليس قوته.

منفعة وجوده

يقول الناس أنه لو لم يكن موجوداً لما كانت تقع الأمور السيئة. لكن عندها حتى الجحيم يكون بلا مغفرة. في أي حال، بهذه الطريقة أيها الصديق المحبوب، يكون عقاب الجحيم أخف وطأة. إذا ارتكبنا الشر من أنفسنا لسبب ما فإن العقاب يكون غير محتّم. والآن أخبرني. لو أن آدم ارتكب كل خطايه من دون مشورة الشرير، فمن كان ليحميه من المخاطر؟ وقد يحاجج البعض بأن آدم ما كان أخطأ. ولكن من أين يأتي بهذا الاستنتاج؟ إذ، إن الذي كان فاتر الهمة وغير مبالٍ، وعلى

هذا القدر من الاستعداد للحماقة حتى أنه قبل هذه المشورة، لا بد أنه كان ليقوم بما عمله آدم وأكثر، من دون معونة هذا المرشد. أيّ شيطان أرشد إخوة يوسف إلى القتل؟

إذا كنا منتبهين يكون مصدرنا للتقدم الروحي

إذاً، أيها الأصدقاء المحبوبون، إذا كنا حذرين ومنتبهين يصبح الشيطان سبباً لتقدمنا الروحي. أي ضرر أصاب أيوب من خداع الشيطان الجبان؟ إن ضعفاء الروح هم الذين يتضررون. ومع أنهم يتضررون حتى ولو لم يكن الشيطان موجوداً، إلا إنهم يتضررون أكثر بأعمال الغاش. من ناحية ثانية، فإن عقاب الذي يخطأ مجرباً من الشيطان يكون أخفّ لأن العقوبات ليست نفسها لكل المعاصي.

لا نخدع أنفسنا. ليس الشيطان سبب جراحنا، إذا كنا يقظين. إنه يزيدنا يقظة وهو من يحفزنا. لو لم يكن هناك أي بهيمية ولا أي اضطرابات من الأهواء، ولا أمراض ولا حزن ولا ألم ولا أي شيء مما شابه هذه الأمور، كيف يكون الإنسان؟ أرى أنه يصير خنزيراً أكثر منه رجلاً، يأكل ويسكر ولا يزعجه أي من هذه الأشياء. ولكن الأمور كما هي الآن، مع الاهتمام والحرص المعطى لهذه المشاكل، هي تمرين وتهذيب على التقوى والإخلاص لله، كما أنها تربية ضرورية على الكمال.

مكاسبنا من حروبنا معه

فلنأخذ مثال الحربة عندما تضرب الترس. إذا كان الترس ضعيفاً فإنها تخترقه. إمّا إذا كان قوياً وصلباً، فإنّ الحربة تعجز عن أن تسبّب له أي ضرر. لا بل على العكس، تسقط الحربة أرضاً بعد أن تكون قد التوت عند هذه النقطة. الأمر نفسه يجري للنفس. أي إذا وجدت السهام التي يرميها الشرير النفس ضعيفة وواهنة، فإنها تتغلغل إلى صميمها. أمّا إذا وجدت النفس قوية وصامدة فإن الشيطان نفسه يتراجع عاجزاً عارفاً أنه لم يسبب أي ضرر لهذه النفس. وهكذا، ينتج فائدتان، أو بالأحرى ثلاثة، فالنفس بقيت سالمة، وازدادت قوة، فيما الشيطان صار أكثر ضعفاً على أثر مسعاه هذا.

دوره في الخطيئة الأصلية

استغلاله للحية بسبب الحسد

لقد كانت الحية أكثر الوحوش التي خلقها الله مكرراً "وكانت الحية أحيلاً جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: «أحقاً قال الله لا تأكل من كل شجر الجنة؟»" (تكوين 1:3).

لاحظوا افتراء الشيطان الماكر ووسائله المخادعة. لقد رأى الله يضع الإنسان المخلوق في موقع عظيم الشأن لا يقلّ عن الملائكة "أنقصته قليلاً عن الملائكة، وبمجد وبهاء كألته" (مزمور 5:8). هذا الإنقاص قليلاً عن الملائكة سببه الخطيئة الأصلية الناتجة عن عدم الطاعة. لهذا السبب، إن سيد الشر أي الشيطان، كان يغلي من الحسد، لأنه رأى الملاك الأرضي، أي الإنسان، يُقام على الأرض، فاهتاج حسداً.

سبب الحسد هو أنه في وقت ما، كان الشيطان ينتمي إلى القوّات السماوية، لكنه رُمي من أعالي برّه بسبب إرادته المتأمرة، وبسبب حقه المفرط. فهو يستعمل خداعه الخبيث لكي يجرد الإنسان من إحسان الله. إن هدف الشيطان، بعد أن جعل الإنسان عاقاً لله، أن يعرّيه من كل المواهب العظيمة التي منحه إياها الرب بنعمته. ما الذي يفعله الشيطان من بعد؟ إنه يلجأ إلى أن الحية التي هي الحيوان الأكثر ذكاءً، بحسب ما يذكر موسى الإلهي: "وكانت الحية أحيلاً جميع حيوانات البرية التي عملها الرب الإله" (تكوين 1:3). مع هذا الحيوان الذي

استعمله الشيطان كمتحدّث باسمه، ومن خلال كلامه، أتمّ الشيطان خديعته بإغراء قرص الزهرة الأضعف، أي المرأة.

(GFC 2,410. PG 53,126)

الحيلة الكبرى

بعد استغلاله لهذا الحيوان المغفل لبناء الحيلة، تحدّث الشيطان إلى المرأة وقال: "أحقّأ قال الله لا تأكل من كلّ شجر الجنّة؟" (تكوين 1:3). عند هذه النقطة، لاحظوا حجم الجريمة وتفصيلها. لقد فتح المناقشة بما لم يقله الله، متّخذاً شكل النصيحة والتساؤل متظاهراً بحمايتهم. هذا هو معنى كلامه "كلّ شجر الجنّة" وكأنّ هذا الشيطان الماكر يقول: "لأي سبب يحرّمكم الله من هذا الفرح العظيم؟ هذا لأنّه لا يسمح لكما بالمشاركة بثروات الملكوت فيما بالمقابل منحكما فرح النظر إليها؟ إنه يمنعكم من المشاركة في الثروات حتى لا يزيد فرحكما؟ أليس الأمر كذلك؟... هل قال الرب...؟"

لماذا يقول هذا الكلام؟ ما فائدة أن يكون الإنسان في الملكوت إذا كان الله يمنعه من إرضاء ذاته بالخيرات التي هناك؟ خاصّة عندما يزداد حزنه بوجود الرؤية والحرمان من الإشباع الذي يكون بندوق الثمرة؟

من هذه المحاولة، كان على المرأة أن تفهم حجم جنونه وأنه يذكر حقائق غير موجودة لهدف ما. كان عليها أن ترى أنّه يظهر نفسه كحارس لكي يصل من الوصايا التي أعطاهما إياها الله، إلى هدف واحد هو إغراؤهما على عصيان هذه الوصايا.

(GFC 2,412. PG 53,126)

شر الشيطان

فلنسمع جواب المرأة للحية عندما قالت "أحقّأ قال الله لا تأكل من كلّ شجر الجنّة؟". فقد أجابت المرأة: "من ثمّر شجر الجنّة نأكل، وأمّا ثمّر الشجرة التي في وسط الجنّة فقال الله: لا تأكل منه ولا تمسّاه لئلا تموت" (تكوين 3:2-3). أترون الجناية؟ لقد قال شيئاً غير صحيح ليعلم الحقيقة، بعد أن أوقعها في الشرك خلال المحادثة. سوف ترون أن بعد هذا، وقد صدّقت المرأة أن الحية ظهرت كصديق، تشجّعت وكشفت لها كل الوصية مخبرة إياها كل شيء بمنتهى الدقة. وبقولها كل شيء في جوابها جرّدت نفسها من كل الأعداء.

أيتها المرأة! ما الذي قلتيه من نفسك؟ الرب قال: "من جميع شجر الجنّة تأكل أكلاً، وأمّا شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل منها، لأنك يوم تأكل منها موتاً تموت" (تكوين 2:16-17). كان ينبغي بك الابتعاد عن الحية لأنها قالت العكس وكان ينبغي بك أن تقولي لها "ابتعدي عني. أنت لا تعرفين قوة الوصية المعطاة لنا، ولا قدر الفرح ولا وفرة المنحة. أنت قلت أن الرب أوصانا بالأكل من ثمار أي من الأشجار. بينما الله الرب، بسبب عظمة إحسانه، بعد أن أعطانا الفرح والسلطة، أوصانا بأن نمسك فقط عن شجرة واحدة. وهذا بسبب عظمة اهتمامه بنا، حتى لا يتسلط الموت علينا لاشرنا في الخطيئة".

لو كانت المرأة مقرّة بالجميل، لكانت تخلّصت منه نهائياً بهذه الكلمات بدل متابعة المناقشة والاستماع إلى كلماته. لكن عوضاً عن هذا، بعد أن كشفت له الوصية وأخبرته كلّ ما قاله الله لهم، قبلت منه نصيحة مأساوية مميتة. مجدداً نصحتها عدو خلاصنا بعمل عكس ما قاله ربنا، عندما قالت للحية: "يمكننا أن نأكل من ثمر كل أشجار الجنّة ما عدا ثمر الشجرة التي في وسطها، فقد قال الرب بأن نمسك عن أكلها حتى لا نموت". فالله منع الإنسان عن الاشتراك بهذه الشجرة حتى لا يصبح قابلاً للموت بسبب عصيانه، لأنّه يحبّه ويهتمّ به كثيراً. عندها قال الشيطان للمرأة: "لا لن تموتاً!" أيّ عذر يمكن قبوله من المرأة التي قبلت أن تسمع هذه الكلمات؟ عندما قال الرب "...لا تلمسا حتى لا تموتا"، الحية قالت "لن تموتا".

الافتراء على الله

ما هو فوق هذا، ولكونه لا يرغب فقط بالوقوف في وجه الله، فهو يفترى عليه لكي يظهره خبيثاً، وبهذا يحقق حيلته. فبعد أن أسقط المرأة، أتم هدفه. قال: "لا! لن تموتنا، لأن الله يعرف بالحقيقة أنكم تأكلون وتتفتح أعينكما وتصيران كالألهة تعرفان الخير والشر". هذا هو كامل الشرك.

شرك مساواة الآلهة

بعد أن ملأ الكأس بالسم القاتل، قدّمه للمرأة. وهي عند هذه النقطة فضّلت عدم رؤية المحتوى المميت لأنها، طبعاً لو أرادت، لكانت عرفتّها منذ البداية. ولكن، بعد أن سمعت الشيطان يقول أن سبب منع الله للأكل من الثمر هو حتى لا تتفتح أعينهما ويصيروا كالألهة يعرفان الخير والشر، فقد امتلأت زهواً على رجاء مساواة الإله. لقد تخيلت لنفسها أموراً كبيرة في المستقبل. هذه هي مكائد العدو. عندما يرفع أحداً باستعمال الخداع، يعود فيسقطه بعنف إلى قعر الهاوية. عندما تخيلت مساواة الألوهة، أسرعت إلى أكل الثمر ووجهت عقلها وأفكارها نحو هذا العمل. لم تفكر بأي شيء غير كيفية الشرب من الشراب الذي قدّمه إليها الشيطان الشرير. (Genesis 16. GFC 2,418-422. PG 53,129)

لماذا عوقبت الحيّة وليس الشيطان؟

قد يستطيع البعض أن يقول: "بما أن الشيطان هو من تصرف من خلال الحيّة وأعطى نصيحته، لماذا عوقب هذا الحيوان؟" هذا أيضاً مثال آخر عن رحمة الله غير المتناهية نحو الإنسان. فقد عمل خالقنا المحبّ تماماً مثل أب رقيق حريص يعاقب قاتل ابنه، ويبيد السكين والسيف اللذين استعملا في قتله، بتقطيعه إلى قطع صغيرة. بما أنّ هذا الحيوان خدم في خديعة الشيطان مثل سكين للقتل، فقد أمره الرب بالعقاب المتواصل. هذا لكي نعرف، عند رؤيتنا هذا الحيوان المنظور المدرك حسيّاً، ونفهم مدى العقاب المفروض عليه. إذا كانت الحيّة، التي استعملت كمجرد أداة، تلقت هذا الغضب، فأى عقاب يكون للشيطان؟ ربّما، هذا هو ما علّمنا إياه ربنا يسوع المسيح من خلال كتابه المقدّس، عندما تكلم مع الذين عن يساره قائلاً: "إذهبوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة للشيطان وملائكته" (متى 41:25).

(Genesis 16, GFC 2,470. PG 53,142)